العالم الثاني

كتب الدكتور الروسي شتيكل المعدود بين كبار علماء النفس مقالا تحت هذا العنوان في مجلة نيفا الروسية نعربه فيما يلي :

العالم الثاني يعرفه جيداً الشعراء أما الرجل الساذج الفاني فانه لا يلحظ عجائبه لانه يعيش في هذه الدنيا بدون شعور حتى أنه لا يهتم ولا يبحث أين ينتهي العالم الواحد ويبتديء العالم الآخر ذلك بسبب هموم الدنيا وأهوالها التي يقاسيها وتضيع فيها الحدود الفاصلة بين العالمين

ان عيشتنا على هذه الارض تكون تعسة شقية تشبه المآتم ودور الاموات اذا لم نعلل نفوسنا بالسعادة في العالم الثاني

جميعنا : الغني والفقير منا والعظيم والصغير والملك والصعلوك الحقير لانجد ما يرضينا في هذه الحياة الفانية . جميعنا نطلب عالماً ثانياً غنياً تتوفر فيه السعادة والراحة ويقدم لنا ما حرمنا أياه العالم الحاضر . وقد سمى السلامة ايسين ذلك : « أكاذيب الحياة العظمى » والحق الذي لا مراء فيه أن ايسين أصاب كبد الحقيقة في هذا التعريف والا فدلوني على شخص واحد لا يفكر ليلا نهاراً وصباحاً مساء في العالم الثاني

أن الطفل يجد عالمه الثاني في ألعابه وملاهيه فاذا ما اطلقت له الحرية ليلهو ويلعب تراه يمرح في بحابح السعادة والانشراح وتصور له تخيلاته صوراً شتى من الملاهي فتارة تراه جنديا واخرى ملكا وطوراً لصا وتارة طاهياً وغير ذلك من الشؤون والاحوال والابتكارات الصبيانية ولكن اذا جاء دور التعليم فانه يقتطعه عن عالمه الثاني ويدعوه الى درس الاشياء اللازمة للعيش الحقيقي . اذ ذاك يعرف الصبي وجود الواجب ويتمم بدون ارادة اوامر معلميه . وعليه فان العالم الاول مملوء بالواجبات واما العالم الثاني فانه غير مقيد بالواجبات لانه لا يعرف غير الحرية المطلقة وحرية الافكار التي لا حد لها وهنا يبتديء العراك بين الخاصة والواجب . أننا نعلم منذ

نعومة اظفارنا ان الواجب يحتم سرورنا وانشراحنا وهذه العداوة التي نتلقاها في الصغر ترسخ في قلوبنا وتلازمها طول الحياة . ولذلك لا ترى انساناً راضياً باعماله واشغاله بل ان الشكوى من متاعب الحياة وسوء احوالها عامة لدى جميع الناس على اختلاف الطبقات وكلهم بلا استثناء يعللون نفوسهم بالآمال وهذا يوافق قول الطغرائي القائل :

أعلل النفس بالآمال أرقبها ما اضيق العيش لولا فسحة الامل

ان الناس الاقدمين كانوا يجدون عالمهم الثاني في الدين فكانوا يبحثون عن السعادة والراحة من متاعب الحياة اليومية عند آلهتهم التي كانوا يحبونها ويعبدونها ويخافون عقابها ويرجون ثوابها . وما نصادفه عند الامم القديمة نصادفه الان عند المؤمنين البسطاء الذين لم تمسهم المدنية العصرية ـ هؤلاء يعتقدون اعتقاداً راسخاً بأن الدين سيكافئهم بكرم ويمنحهم التعزية ويجازيهم في العالم الثاني عن الاتعاب التي تحملوها في العالم الاول

يقول بينيديكت في كتابه علم النفس « ان عصرنا الحالي الذي انتشرت فيه الحرية الفكرية قد خنق هذا الينبوع الحي وأصبح الناس لا يجدون مخرجاً للخلاص مما يقاسونه من شرور الحياة وهمومها التي تتراكم في نفوسهم »

وكلما توسع نطاق التهذيب العقلي عند الانسان كلما زاد عالمه الثاني تعقيداً وصعوبة أن الناس يعجبون كثيراً من أن جماعة الاطباء في العالم الراقي المتمدن يتعشقون الموسيقى وغيرها من الفنون الجميلة يتلاهون بها بعد انتهاء أعمالهم اليومية . وهذا أمر أفهمه أنا تمام الفهم لان أولئك الاطباء يتصادمون كل يوم مع أتعس وأشق أهوال الحياة ويرون أشد الالام التي يقاسيها مرضاهم أولئك المرضى الذين يرجون الشفاء والسعادة بواسطة الاطباء وما أشقى الطبيب وأتعسه اذا لم يستطع تخفيف تلك الالام ولا ريب انهم يتحولون الى حيوانات عديمة الشعور اذا لم يجدوا لهم عالماً ثانياً يتناسون فيه شقاء الحياة وتعاستها . انهم يجدون ذلك في الموسيقى التي تقتل الحسد والبغض والحقد والخوف والاضطراب وهيجان الشعور وتصرفهم الى التلذذ بانغامها المطربة المنعشة

ان الانسان العائش بالخيالات والاوهام ينقله أتفه الامور من عالم الى عالم خذلك مثلا بسيطا : يشتري انسان ورقة يانصيب ويضعها في جيبه ويشعر بسرور يخفق له فؤاده ويعلل نفسه بالسعادة اذا ربحت نمرته وكأنه بذلك انتقل من عالم الى عالم

وبناء على ذلك فان لكل منا عالما ثانيا والذي ليس له عالم ثان فانه عبارة عن حيوان لا يشعر ولا يحس أو أنه أسعد السعداء على هذه الارض .

اني أفهم السعادة بأنها تنحصر في اظهار النشاط والهمة والجد في العالم الاول ان العامل النفس الشقي يعلل نفسه بالحصول على السعادة في العالم الثاني . ان السعادة تشبه الحصول على امرأة جميلة حسناء . اننا نرتعش ونضطرب اذا خامرنا فكر بأننا نفقدها . ويخيل لنا في خلال هجوم الشهوة والغيرة والميل اليها أن الحصول عليها هو أعظم سعادة على الارض . ولكن هل نستطيع ونحن في حالة الرزانة والتعقل أن نقول : بأني سعيد وسعيد جدا لاني توصلت الى تلك المرأة ؟ ... كلا كلا فالسعادة اذن هي أعظم أكذيب الحياة وان أسعد الناس هو الذي لا يفكر بالسعادة ولا يبحث عنها

ومما يصعب تصديقه تلك السعادة التي يشعر بها المجنون . انظر اليه تجده يسير بعظمة وكبر واعجاب ذاهلا وابلا في غرفته . ومع أنه يرتدي ثوبا بسيطا فانه يشعر انه ملك يدير الحكومات ويسوس الرعايا ويشعر بأن الكرسي هو عرش المملكة وان جميع الحراس والطبيب والخدمة كلهم عبيد له وتسمعه في هذيانه يتلفظ بعبارات تدل على أنه يمرح في ظل السعادة والانشراح ولا عجب فقد جاء في الامثال العربية « ومالذة العيش الا للمجانين »

وبالاجمال فان كل انسان يبحث عن السعادة والعالم الثاني ولكن شباكهم مختلفات فبعضهم يجد السعادة في الزواج وبعضهم في جمع المال وبعضهم في اقتناء الاملاك والعقارات ولكنهم جميعا لا يرضون بحالتهم ويعللون النفس بالحصول على السعادة والغبطة في العالم الثاني